الاغتراب الشيبي والزمان عند ابن الرومي

إعداد
علي محمد عيسي الشاظوف

البريد الإلكتروني : ALSHATHOF@gmail.com

المقدمة

من الظواهر الفنية ، التي تحتاج إلى تسليط الضوء عليها ظاهرة الاغتراب الذي يصاحب مجيء الشيب في الشعر العربي القديم ؛أي ظاهرة " الاغتراب الشيبي " فما أن يبدأ الإنسان في التقدم في العمر ، حتى يهجم عليه الشيب منذراً ببداية الضعف ، والعجز ، وعدم القدرة على تحقيق الذات ، ويشعره ببداية النهاية ؛ الأمر الذي يؤدي إلى ضعف مقاومته النفسية أمام الشعور بالاغتراب ، ويقوي عنده الشعور بالحزن ، والكآبة ، والغربة ، والانفصال عن النفس والمجتمع وعن كثير من العناصر التي كانت داعمة له ، ومتحالفة معه في وقت سابق . وهو خلال هذه المعاناة أحياناً يلقي اللوم على الزمان ، ويشكو منه ، ويلومه على التغيرات السلبية التي حدثت له بسبب الشيب ، وفي أحيان أخرى نجده يشيد بالزمان الماضي ، وبما حققه أيام شبابه ؛ ويجتر ذكرياته ، ويصبح نهباً لأحلام اليقظة ، التي لا يجد غيرها ميداناً لتحقيق الذات ، وتعويض ما فات ولهذا نراه كثيراً ما يبكي هذا الشباب الغارب ، الذي كان فيه أشد قوة ، وقدرة على الفعل .

وقد صور القرآن الكريم رحلة الإنسان في الوجود في قوله تعالى : "الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير "([1])

ولما كان الأدب الحقيقي هو ، الذي يصدر من داخل التجربة ، ويرتبط بها ارتباطاً موضوعياً فالأدب لسان النفوس ، وترجمان العواطف ، وصورة المجتمع ، فقد عبر الشعراء العرب القدماء عن مشاعر الاغتراب ، التي انتابتهم عند حلول الشيب ، وقدومه ، ومقاومة هذا الشعور ، والحصر النفسي في تصوير الاغتراب الوجودي ، وإلقاء اللوم في ذلك على الزمان .

وتعتبر ظاهرة الاغتراب الشيبي ظاهرة إنسانية عامة عبر عنها الشعراء في جميع العصور ولكننا نجد في أدبنا العربي القديم شاعراً أكثر من شعر الشيب حتى أصبح ظاهرة في شعره ؛ ولذلك فقد خصصته بالدراسة عليه لمعرفة مقومات ظاهرة اغتراب المشيب والزمان عنده .

أسباب اختيار الموضوع :

١) عدم وجود دراسات سابقة في موضوع اغتراب الشيب ، والزمان ، ولأن موضوع الاغتراب الشيبي ، والزمان يفتح باباً واسعاً على الجوانب الوجودية ، والإنسانية ، والنفسية ، والفلسفية ، والإبداعية في الشعر العربي القديم .

٢) وجود جميع عناصر ، ومقومات ظاهرة الاغتراب الشيبي ، والزمان في شعر ابن الرومي وهذا على عكس الشعراء الآخرين ، الذين جاءت عناصر اغتراب المشيب وصوره عندهم ناقصة ، ومحدودة .

أهداف الدراسة :

١) تسليط الضوء على هذا الجانب النفسي ، والوجدلني المهم في الشعر العربي القديم .

٢) إعطاء نتائج جديدة ، وأكثر دقة عن الشيب في الشعر العربي القديم .

٣) تحديد العناصر الأساسية لمكونات الاغتراب الشيبي ، والزمان عند ابن الرومي .

٤) معرفة المواقف النفسية المختلفة للشاعر ، وردود أفعاله اتجاه ظاهرة الاغتراب الشيبي والزمان .

منهج البحث :

اعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي الوصفي ، الذي يعنى بوصف عناصر الظاهرة الأدبية المدروسة ، كما يقوم بتحليل الأبيات الخاصة بهذه الظاهرة في المباحث المختلفة لهذا البحث ، وكيفية تناول الشاعر لها ، وتحليل أسلوبه للوصول إلى أهم المقومات ظاهرة الاغتراب الشيبي ، والزمان عند الشاعر ، كما استعان البحث ببعض الإضاءات من المنهجين النفسي ، والاجتماعي .

---

[1] - سورة الروم الآية ٥٤.

خطة البحث : قسمت هذا البحث إلىمقدمة ، وتمهيد وفصلين ، وخاتمة .
الفصل الأول : مفهوم الاغتراب الشيبي
١)المبحث الأول : مكونات الاغتراب العامة ومفهوم الاغتراب الشيبي :

المطلب الأول : مكونات الاغتراب العامة : الاغتراب متعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية، وعقلية ،ومايستشعر من غربة في العالم، وفتور أو جفاء علاقته مع الآخرين، واستخدم ومصطلح الاغتراب مشيراً به إلى عدد من العلاقات المتنوعة مثل علاقة الإنسان بذاته، وعلاقته بالآخرين، والطبيعة، وبالعمل الإنساني، وناتجه، إلا أنه أولى عنايته بقضية اغتراب الإنسان عن ذاته ([٢]) . والحقيقة أن معاني الاغتراب تتعدد تعدداً يوقع في اللبس ، والتضارب مما جعل أحد المفكرين يقول : ((يبدو أننا تغربنا عن الاغتراب ، وما هذا الذي تغربنا عنه إن لم يكن من الأمور الجوهرية)) ([٣]) غير أننا يمكننا تحديد، وتلخيص المكونات الأساسية للاغتراب في الآتي

١) العجز : ويقصد به شعور الفرد بأنه لا يستطيع التأثير في المواقف، التي يواجهها كما أنه لايستطيع أن يتخذ قرارته، أو يقررمصيره، فإرادته، ومصيره ليس ابيديه، بل تحددهما قوى خارجة عن إرادته الذاتية، وبالتالي يشعر بالإحباط والعجز عن تحقيق ذاته.

٢) اللاهدف : وهوشعورالفرد بالافتقار إلى وجودهد فواضح، ومحدد لحياته ،وبأنه ليست لديه أية طموحات مستقبلية ، فهو يعيش لحظته الراهنة فقط .

٣) اللامعنى : وهوشعور الفرد بأنه لايوجد شيء له قيمة، أو معنى في هذه الحياة ؛ نظراً لخلو هذه الحياة من الأهداف،والطموحات .

٤) التمرد : ويعني الرغبة في البعد عن الواقع، والخروج عن المألوف، وعدم الانصياع للمألوف من الأمور .

٥) العزلةالاجتماعية: وهي شعور الفرد بالانفصال، وافتقاد العلاقات الاجتماعية،وكذلك الشعور بالبعد عن الآخرين،حتى وإن وجد بينهم .

٦) الاغتراب عن النفس،أوالذات: ويعني أن الفرد يشعربانفصاله عن ذاته، وهنا كمعنى آخر للاغتراب عن النفس، وهوافتقاد المرء لعمله الذي كان يقوم به ،ومايصاحب ذلك العمل من الشعور بالرضا،والزهو .

المطلب الثاني : مفهوم الاغتراب الشيبي : تناولت العديد من الدراسات ظاهرة الاغتراب في الشعر العرب يقديمه، وحديثه بصفة عامة ،بينما تطرق الدراسة باباً جديدا ًأكثرخصوصية أطلقنا عليه اسم الاغتراب الشيبي ، والزمان ونعني به دراسة المكونات الأساسية للاغتراب التي يأتي بمامجيء وافدالشيب إلى الإنسان ، وتأثير ذلك في علاقته مع الزمانوهيمشاعرالحزن،والكآبة،والعجز، والشكوى من الزمان ، والانفصال عن الذات ، والمجتمع ،وسيطرةالاضطراب،والتمزقعلى نفس الشاعر ، والقلق الوجوديمنالزمان، والشكوى منه ، والانفصال عن الواقع .

[٢]- ينظر الاغتراب عند إيريك فروم ، ص ٧١ .
[٣]- الإنسان والاغتراب : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٥ م ، ص ٣٨ .

المبحث الثاني : العلاقة بين الاغتراب الشيبي والزمان

المطلب الأول : الشكوى من الزمان :

الإنسان يعيش في ظل شعور قوي بالزمن ؛ وهذا الشعور سببه في الواقع إحساس قوي بالذات ذلك أن الإنسان إنما يعي ذاته ، ويكون خبرته عن هذه الذات عن طريق إحساسه بالزمن ، كما أن الإنسان موجود زماني باعتبار أنه كما يعيش في الحاضر يعيش الماضي ، إذ يُنتزع منه أجمل ما انطوى عليه ، ثم أنه لا يعيش إلا من أجل المستقبل ، الذي يريده أن يوجد ، ويسعى في حاضره من أجل أن يكون خيراً من ماضيه ([٤]) والذات الإنسانية لا تحصل خبرتها ، وتجاربها ، ومعرفتها إلا من خلال تتابع اللحظات والتغيرات ، التي تشكل شخصيتها ، فهي تكون بالزمن ، كما أنها أيضاً تكون في الزمن ؛ أي أن الإنسان لا يمكن أن يكون خارج نطاق الزمن ، وهذه حقيقة أدركها الإنسان منذ القديم ، ففي الزمن ، وبه يتم الفعل .([٥])

وإدراك الإنسان لهذه العلاقة المؤكدة بين الزمن ، والفعل جعلته يشكو من الزمان ويرجع إليه سبب ما أصابه من الشيب ، والشيخوخة ، ونجد هذه الشكوى من الزمان ممتدة في الشعر العربي بمختلف عصوره الجاهلي ، فالشعر العباسي ، وهو يقع في فترة استقرت فيها أفكار الإسلام ، واتضحت مفاهيمه ، ظل شاعره يحس بالزمان على صورة تعكس توجسه ، والخيفة منه ، وقلقه مما يخبئه له ، وعدم اطمئنانه لما يجري فيه ولاشك في أن الشعراء في العصر العباسي لم يكونوا يصدرون عن الفهم الدهري الإلحادي ، وبخاصة الذين يؤمنون بالله ، وبتصرفه المطلق في خلقه ، ويمكن أن يفهم هذا الإحساس بالزمن في الشعر الإسلامي ، وخاصة العباسي ؛ إنما هو انعكاس للشعور القوي بالذات ، وما يعتريها من تغير ، وما يحدث لها من وقائع .

ويعتبر تصور الزمن على أساس إنه شيء موجود يمكن قياسه ، والتعامل معه هو تصور الجماعات ، التي أتيح لها أن تعيش في ظل الحضارة ؛ ذلك أن البدائي هو ، الذي يكون الزمن عنده ميثولوجياً ، أو شعائرياً ، أو ربما لم يكن له وجود حقيقي ، ومن هنا فهو يتغاضى عنه ولا يعبأ به ([٦]) ، وبالتالي فليست له هذه المكانة ، التي عند المتحضر من حيث الإحساس به ، وربطه بحياته .

فقد يرجع اختلاف الزمان ، أوالدهر في النصوص الإسلامية ، والنصوص الجاهلية إلى أنه عند الشاعر الجاهلي كان محملاً بمحتوى شعائري ، على حين نجده عند العباسي مفرغاً من هذا المحتوى ، ومعبأ بمحتوى آخر شعري ، والفرق بينهما في درجة الشعرية المتحققة من الاستخدامين ، فعندما ينسب الشاعر الجاهلي الفاعلية ، والإرادة إلى الدهر ينسبهما على أنهما الحقيقة ، وهو في فعله هذا يشبه الإنسان البدائي، الذي أراد أن يعي الكون فصنع الأسطورة. فالأسطورة عنده ليست شيئاً آخر غير الحقيقة ، ولذلك فإنها ليست تصوراً شعرياً بقدر ما هي وعي علمي ، أو شبيه بالعلمي، أما عندما يتعامل الشاعر المعاصر مثلاً مع الأسطورة ذاتها في نصه ، فإنها تفقد محتواها الشعائري ، الذي كانت عليه أيام البدائي ، وتتحول إلى تقنية شعرية يستخدمها الشاعر ليخلق في نصه توتراً شعرياً ما . وهذا التحول مرده إلى أن الأسطورة ، كما يراها الشاعر المعاصر لم تعد تعبر عن الحقيقة ، بل هي انزياح عن الحقيقة أو تصور شعري للعالم ، وهذا هو ما دفعه إلى استخدامها في نصه . والأمر نفسه يكاد ينطبق على التعامل مع الزمان بين الجاهلي ، والعباسي ، ففي حين ينظر الجاهلي إلى فاعلية الدهر بمنظار الحقيقة ، نجد العباسي ينظر إليه بمنظار الشعرية ، وبين المنظارين فرق بين ؛ ولذلك تبدو علاقة الشاعر بالزمان ، أو الدهر في النص العباسي أكثر شاعرية من علاقته به في النص الجاهلي ؛ لأن هذا الأخير تكون فيه المسافة بين الانزياح ، والدرجة الصفر (الاعتقاد ـ الحقيقة) قصيرة على حين

---

[٤]- ينظر مشكلة الحياة : زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر الفجالة ، دار مصر للطباعة ،١٩٧١م ، ص ٣١٠ .

[٥]- ينظر الزمان الوجودي ، ص ٢٥٣ .

[٦]- ينظر اتجاهات الشعر العربي المعاصر : إحسان عباس ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٨ م ، ص ٨٣ .

تتطاول هذه المسافة بينهما في النص العباسي ، وطول المسافة قرين الشعرية([٧]) ومع أن ما يحدث في الزمان ليس شراً كله ، إذ أن فيه لحظات السعادة ، والانتصار ، والتحقق الإيجابي للإنسان في بعض تجاربه في هذه الحياة ، إلا أن الإنسان لا يحس بالزمن غالباً إلا من جانب واحد ، وهو الجانب الأسود ، جانب الشقاء ، والمعاناة ، والسلب ، وحتى الماضي حين يتغنى به الإنسان ، ويحاول أن يتشبث به لا ينظر إليه إلا على أنه ضحية من ضحايا التتابع الزمني ، الذي بسببه أضحى ذلك الحاضر السعيد ماضياً مفقوداً .

والشاعر وهو يحس بهذه المشاعر الاغترابية المريرة نحو الوقائع في حياته ، يجد نفسه أكثر ميلاً للتنفيس عن نفسه ، ومحاربة مشاعر الاغتراب من حزن ، وخوف ، وقلق ، وذلك بإلقاء اللوم على الزمان ، والتشكي مما يصيبه فيه ، والنظر إليه هذه النظرة المتشائمة([٨]) .

لقد أراد الله تعالى لهذا الوجود أن يرتبط بالزمان ، وأن يعيش في نطاقه ، والإنسان وهو أحد عناصر هذا الوجود ، أو أهم عناصره أدرك علاقته بالزمن من حيث وجوده فيه ، ومن حيث أن تحقيق إمكانات حياته إنما تتم فيه ، وبسببه ((ولما كان إمكان التحقق أمر غير متناه ، بينما زمان الإنسان ، الذي هو وجوده متناه ، وبالتالي فهو سلب لإمكانية التحقق الكامل للوجود))([٩]) شعر الإنسان تجاه الزمن بمشاعر الاغتراب ، والقلق ، والمرارة ، وعزا إليه ما يحس به من شقاء ، وما يلاقيه من عناء ، إذ أن سعادته الحقيقية تكمن في اكتمال التحقق المبرأ من أي مظهر من مظاهر السلب ، أو النقصان في التحقق .

المطلب الثاني : اغتراب الإنسان من التغير الزماني بالشيب :

من أهم مظاهر السلب الزماني تغير الإنسان عبر الزمان ، وتقدمه في العمر ، وانتقاله من الشباب إلى الشيخوخة ، ومن القوة إلى الضعف ، ويعتبر الشيب أحد العلامات الرئيسية على هذا التغير ، ولذا يبدو الإنسان الشائب ((مغترباً تجاه الزمن ، الذي لا يحس اتجاهه سوى الضياع ، والانهزام ، والفقد ، والاستسلام))([١٠]) ؛ ولعل أكثر الناس انفعالاً بالمؤثرات الخارجية هم الفنانون ، أو من يتحلون بإحساس الفنانين ، ولنا في الشاعر خير مثال على تجسيد هذه المقولة ؛ لأن علاقته بالأشياء تبدأ من أحاسيسه ، ومشاعره المرهفة ، وفي الأصل اللغوي لكلمة (شاعر) دليل قوي على ذلك ، فهو من شعر أي أحس ([١١]) وكأن الشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا كان وعيه للعالم يأخذ طابعاً وجدانياً يمتح من معين مشاعره الرهيفة ، فهو حين يرى في الكون توازناً ، وانسجاماً على سبيل المثال ، لايكون ذلك لأنه يعي الوظيفة التكاملية للأشياء المبعثرة ؛ بل لأنه قبل كل شيء يحس إحساساً مرهفاً بوجود الوجود المجزأ ، وكليته . وهو حين يناصر الضعفاء لا يدفعه إلى ذلك إيمانه بضرورة العدل فقط ؛ بل لأنه يبكي لكل دمعة مظلومة ، وهو حين ينشد الفضيلة ، والخير لا ينشدهما لأنهما من متطلبات الوعي فقط ؛ بل لأنه يألم لافتقادهما ، فحياته كلها ذات صبغة انفعالية عالية إذا ما قورنت بانفعالات الإنسان العادي ، وإذا تعرض كلاهما لموقف واحد ، فإننا نجد تبايناً جلياً في تعاملهما مع هذا الموقف ، إذ يغلب أن يكون رد فعل الشاعر أكثر انفعالا. فإذا كان الإنسان العادي يعجب بمنظر الشروق ، فإن الشاعر يطرب له ، ويحس بأنه يولد كل يوم مع ولادة كل شمس جديدة ، وإذا كان الإنسان العادي يتذكر الموت كلما رأى قبراً ، فإن الشاعر يحتضر كلما رأى نبتة ذابلة ، أو وجه طفل جائع . ولهذا ظهر الانفعال ، والتوتر الزائد عند الشعراء في تجربتهم الاغترابية مع الشيب ، والزمان ، وأبعاده وتحولاته أكثر من الناس العاديين ، ويبدو أن هذا الانفعال الزائد عند الشاعر هو من لوازم الإبداع عموماً ، بل أن هناك من يقول ((أنه يجب تصحيح القول الشائع [أن الشخص كثير الانفعالات لأنه فنان] بأن يعدل إلى قولنا [

---

[٧]- ينظر بنية اللغة الشعرية : جان كوهن :ترجمة محمد الولي ، ومحمد العمري ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٦م ، ص٩٣ .

[٨]- ينظر الحياة والموت في الشعر الأموي ،ص١٣٢ ، ١٣٣ .

[٩]- الزمان الوجودي ، ص ٢٥٣ .

[١٠]- ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات : د. مي يوسف خليف ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص ٥٢ .

[١١]- مجموعة المعجم الوسيط ، دار الأمواج ، بيروت ،١٩٨٧ م ، ص ٤٨٤ .

أنه فنان لأنه كثير الانفعالات])) ([١٢]) . وفي موضوع دراستنا كان سبب هذا الانفعال ، والتوتر الشعور بالاغتراب ، ومشاعر الضعف ، والعجز ، والخوف ، والقلق ، التي أتى بها مجيء وافد الشيب إلى الشعراء ، فكل هذه المظاهر السلبية ما هي إلا تعبير عما هي وجودنا من تناه ، وعرضية ، وقابلية مستمرة للتصدع ،وإذا كنا نحاول في كثير من الأحيان أن نشتري الطمأنينة بأفدح الأثمان ؛ فذلك لأنه ليس أثقل على نفوسنا من حياة الخوف ، والجزع ، والقلق ، وعدم الاطمئنان ، و نتيجة لمعاناة الشعراء لهذا الواقع الاغترابي المأساوي ألقوا اللوم على الزمان باعتباره سبب التغير ، والفساد ؛ فلا شيء أدل على الزمان من الحركة ففيها يلاحظ ، ومن خلالها يقاس ، هي وجهه الملموس ، وهو باطنها والزمان تتال في الحركة ، وليس ثم حركة دون تغيير ، بل أن الحركة بذاتها تغير (انتقال الشيء من حال إلى حال) ، ولذلك صح أن يقال إن مظاهر الزمان تلتمس بالتغير ، فلا شيء مما هو موجود يبقي على حاله ، سواء أكان إنساناً ، أم حيواناً ، أم جماداً ، فالأشياء لا تبقى على حالها أبداً وإلا خرجت على كونها موجودة في زمان يقول برجسون : ((إن التغير أكثر أصالة مما عسى أن يظن المرء في الوهلة الأولى ، ولو أن حالة نفسية ما توقفت عن التغير ، لتوقف زمنها عن الجريان....والحق أننا نتغير دون انقطاع وإن الحالة نفسها ليست إلا تغير))([١٣]) غير أن لهذا التغير وجهين : وجه فلسفي وآخر حياتي ، ويجمعهما القول بالإفساد ، حيث يقول أرسطو عن الوجه الأول: ((إن كل تغيير مفسد بطبعه....والبينة الكافية على هذا أنه لا شيء يتغير دون أن يحرك على نحو ما ودون أن يفعل))([١٤]) فالتغير اختلاف يطرأ على حال الشيء ، فهو إفساد وليس المقصود بالإفساد هنا حكم قيمة اجتماعياً ، أو أخلاقياً ، بل هو توصيف لحال ؛ أي أن التغير يفسد الحال التي يكون عليها الشيء قبل تغيره. أما المعنى الحياتي فذو شقين : شق يوازي المعنى السابق كتغير الشباب نحو الشيخوخة ، أو الانتقال من الفرح إلى الحزن ، وشق يخالف ما سبق كالانتقال من المرض إلى الشفاء ، ومن الحزن إلى الفرح غير أن هذا الشق قلما يلاحظ في الحديث عن الزمان ؛ لأن الإنسان يشعر أن ساعات الفرح قصيرة أمام ساعات الألم ، فهذه الأخيرة أثبت في الذاكرة وألصق بمشاعر الإنسان ؛ ولذلك تكثر شكوى الناس من أن الأفراح لا تدوم ، ومن أن هذه الحياة ليست إلا آلاماً ومصاعب ، وإن تحدثوا عن الزمان قرنوه بالتغير ، وبالوجه المفسد منه خاصة ، وقد رفض الإنسان هذا التغير، فالإنسان هو الكائن الوحيد ، الذي يرفض أن يكون ما هو ؛ إي أن الرفض سمة أساسية تميز الإنسان عن غيره من الكائنات ، فهو كائن طموح يعيش مستقبله أكثر من ماضيه ، وحاضره ، ويسعى دائما إلى صورة من الكمال تدفعه إلى رفض ما يجري حوله كلما تعارض ذلك مع ما يطمح أن يكون عليه ، فتعارض مجريات الزمان مع صورة الكمال ، هي التي تدفع المرء إلى رفضه ، ووصفه بالطيش حيناً وبالظلم حيناً آخر ؛ لأنه لم يحقق له الظروف التي يتمناها ، وبسبب هذا الرفض يبقي الإنسان متوجساً من الزمان ، وفي الوقت ، الذي رد فيه الشعراء الكبر ، والعجز إلى الزمن بوصفه قوة فاعلة ، فإنهم أدركوا كذلك أن مرور السنين ، وتتابعها يقف وراء الشيب ، وهم يمزجون بذلك بين الزمن كقوة فاعلة ، وبين الزمن ، الذي هو جريان الوقت ، وسيلانه ؛ أي الزمان بمعنى الوقت ([١٥]) .

الفصل الثاني : مكونات الاغتراب الشيبي والزمان عند ابن الرومي

---

[١٢]- الأسس النفسية للإبداع الفني : مصطفى سويف ، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٥٩م ، ص ١٢٤ .

[١٣]- التطور الخالق:هنري برجسون ، ترجمة : محمد محمود قاسم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ، ١٩٨٤ م ، ص ١٢ .

[١٤]- الزمان الوجودي: عبد الرحمن بدوي ، ص٨٩.

[١٥]- ينظر الزمن في الشعر الجاهلي: عبد العزيز محمد شحادة ، دار الكندي للنشر و التوزيع، إربد ،الأردن ١٩٩٥ م ص١٠٩.

تمثلت مكونات الاغتراب الأساسي في اغتراب المشيب ، والزمان عند ابن الرومي أولاً : في العجز وانعدام القدرة ، الذي يشمل الشكوى ، والخضوع ، والانفصال عن الآخر ، وثانياً: في الاغتراب عن الذات ، والاغتراب عن الآخر .

المبحث الأول : العجز وانعدام القدرة :

ويقصد به شعور الفرد بأنه لا يستطيع التأثير في المواقف ، التي يواجهها ، كما أنه لا يستطيع أن يتخذ قراراته ، أو يقرر مصيره ، فمصيره ليس بيده ، بل تحدده قوة خارجة عن إرادته الذاتية ، وبالتالي يشعر بالإحباط ، والعجز عن تحقيق ذاته ، وقد ظهر هذا العجز في صور عديدة منها :

المطلب الأول : الشكوى والإحساس بالظلم والغدر:

إن أولى المشاعر ، التي تنتاب الشاعر الشائب المغترب زمنياً ، هي مشاعر الظلم ، والغدر من هذا الزمان ، الذي كان موالياً له ، ومساعفاً له زمن الشباب ، ثم يتبدل ، ويتغير في الزمان الحاضر، ويصبح ظالماً ، وغادراً ، وذلك بفرضه للشيب ، ذلك الضيف الثقيل في حياة الشاعر وواقعه ، ومن أبرز أحاسيس الظلم هي الشكوى من ظلم الزمان بالشيب المبكر ، الذي أتى في غير أوانه ، وزمانه ، فحين يربط الشاعر ما أصابه بالزمان الذي يصيب كل شيء بالوهن ، فإنما يخرج بمشكلته إلى مستوى أعم ؛ ولهذا فإن الشاعر يصل إلى حقيقة أن كل ما يفوتنا لا يرجع ، وهذه الحقيقة وحدها تمثل لب مشكلة الاغتراب الإنساني ، والشعور بالضياع . فالزمن لا يسلب منا القوة والقدرة فقط ، بل يسلب منا أجمل اللحظات وأسعدها . وهو حين يسلب منا تلك اللحظات الحلوة ، ويسلب القدرة على استعادتها ، أو تحقيق مثلها ، إنما يتركنا غرباء ويمثل هذا اغتراباً في مواجهة الزمان . ويتضاعف الشعور بالظلم ، والإحساس بالعجز عند ابن الرومي ، ويتراكم ويصبح ظلماً مركباً حيث تظلمه الليالي بالشيب
المبكر ، فينتج عن ذلك ظلم آخر ، وهو نفور الغواني عنه عند رؤيتهن لهذا الشيب ، ويرى

أن ذلك هو الظلم الحقيقي فيقول : ([١٦])

خصيمُ الليالي والغـواني مُظلَّمُ وعهد الليالي والغواني مُذمَّـمُ
فظلـمُ الليـالي أنـهنَّ أشبْنَنـي لـعشرين يَحْذُوهنَّ حوْل مُجرّمُ
وظُـلمُ الـغواني أنـهنَّ صرمنني لظلـمِ الليـالي إننـي لمُظلَّمُ

ونلاحظ في الأبيات السابقة استخدام الشاعر لأسلوب التكرار ، حيث تكررت كلمتي الليالي والغواني عدة مرات ؛ وذلك لبيان عظم إحساسه بالغدر ، والظلم الواقع عليه منهما .

ومن ظلم الزمان أيضاً عند ابن الرومي هذه الديمومة ، التي فرضها نهار الشيب السرمدي مقابل ليل الشباب الزائل ، ويرى أن ذلك هو مبعث الحزن الحقيقي يقول:([١٧])

كفى حَزَناً أن الشباب مُعَجَّلٌ قصيرُ الليالي والمَشِيبَ مخلَّدُ
أرى الدهرَ أجْرى ليله ونهاره بعدلٍ فلا هذا ولا ذاك سَرْمدُ
وجارَ على ليلِ الشباب فَضَامَهُ نهارٌ مشيب سَرمدٌ ليس يَنْفَدُ

والزمان عند ابن الرومي يسرق الشباب خفية شيئاً فشيئاً دون أن يحس الإنسان ليجد نفسه في النهاية أسيراً في قيود الشيب المريرة ، يقول : ([١٨])

لـقد علم الـدهر أن الشبا ب ثوب لـدى الناس لا كالـخرق
لـذاك يـدب خـفيـاً لـه فيسلبـه سلباً كـالسّرق
ولـو كـان يسلبـه جـهرة للاقى القنـا دونـه والـدرَق
وحُـقَّ لـه مـع إقدامـه إذا ابـتز مثل الشبـاب الـفرق

---

[١٦]- ديوان ابن الرومي:تحقيق : حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٩ م ،ج ٥ ، ص ٢٠٩١ .
[١٧]- ديوانه ، ج ٢ ، ص ٥٨٤ .
[١٨]- ديوانه ، ج ٤ ، ص ١٦٨٥ .

ففي الأبيات السابقة نرى جمال الصورة عندما شخص ابن الرومي الدهر سارقاً يسلب الإنسان شبابه بدون أن يشعر الإنسان ، فهو يعرف أن مكانة الشباب عزيزة عند الإنسان ؛ ولذلك فهو لا يسرقه جهاراً خوفاً من رد فعله عليه .

ويكرر هذا المعنى في قوله :([١٩])

لا تَحْسَبَنَّ الزمانُ ينسئك ال قرضَ ولكنه يداً بيدِ
يعطيك يوماً فيقتضيك به مَريرة من مرائر الجسدِ
يَسْتَرِقُ الشيء من قُواك وإن كان خفياً عن أعين الرَصَدِ
حالاً فحالاً حتى يَرُدَّكَ للـ كِبرة بعد الشباب والغَيدِ

إن هذه المعاناة القاسية أتت بالشيب إلى الشاعر ، وهذا الشيب يراه ظلماً ، وحيفاً قبل به على مضض وبدون إرادة ، ولا رغبة منه ، فالشاعر يرى أن ((الشيب عدو خطير جاء من داخل كيانه الجسدي ؛ ولذلك فهو يسقط إحساسه الاغترابي بفعل تألمه من الشيب الغازي على الزمن)) ([٢٠])

المطلب الثاني : الخضوع : وهو الانصياع لزمان الشيب ، وعدم مقاومته ، وفي ذلك يقول ابن الرومي في مقدمة إحدى قصائده: ([٢١])

بكيتَ فلمْ تتركْ لعينكَ مَدْمَعَا زماناً طوى شَرْخَ الشبابِ فودَّعا

.....

فأصبحتُ أقتصُّ العهودَ التي خلتْ بآهةِ محقوقٍ بأنْ يتفجَّعا
أَحِنُّ فأستسقي لها الغيثَ مرةً وأُثني فأستسقي لها العينَ أدمُعا
أعاذلُ إن أعطِ الزمانَ عنانَهُ فقد كنت أُثْنِي منهُ رأساً وأخْدعا
ليالِيَ لو نازعتُه رَجْعَ أمسِهِ ثَنَى جيدَهُ طوعاً إلي ليرجعا

فشاعرنا في زمان الشيب لا يملك إلا البكاء بحرقة ، وتفجع على زمان شبابه ، ففي زمان العجز ، والشيخوخة يتبلور هذا العجز عند الشاعر في عملين لا ثالث لهما ، أولهما : البكاء على ماضي الشباب الغابر ، وثانيهما : الحنين لهذا الماضي ، والدعاء له بالسقيا . ويرد ابن الرومي على عاذلته المتعجبة من هذا الخضوع ، والعجز من خلال صورة تلاحم فيها أسلوب الشرط مع الاستعارة التشخيصيه حيث شخص الزمان جواداً يتحكم في عنانه بقوة الشباب ، واستعمل أسلوب الشرط ((إن – فقد)) ليعزي نفسه على واقعها المأساوي المتمثل في الاستسلام لزمان الشيب المرير ، واعطائه الحرية له ليفعل به ما يريد ((إن أعطِ الزمان عنانه)) فطالما أخضع الشاعر الزمان أيام الفتوة والشباب مراراً ، وتكراراً ، ويبالغ ابن الرومي في تصوير قوة الشباب باستعمال أسلوب الشرط أيضاً ((لو نازعته – ثنى جيده)) ، فيخبرنا بأنه لو طلب أيام شبابه من الزمان الرجوع إلى الوراء لأجاب الزمان طائعاً ، والعاذلة هنا قد تكون رمزاً لنفس الشاعر ((الأنا)) فالشاعر في اغترابه عن ذاته ، واستغرابه لعجزه ، ربما كان يرد على نفسه ، ويبرر لها هذا الخضوع ، والعجز .

المطلب الثالث : الانفصال عن الواقع وتمني اللامعقول :

ومن صور العجز التي حاول فيها الشعراء التخلص من مشاعر الاغتراب الزماني بالشيب هي الانفصال عن الواقع وتمني اللامعقول ، والذي من أهم صوره الرغبة في تجميد الدهر ، أو الزمان ، والسيطرة عليه ، فهناك رغبة دفينة لدى الشعراء في تجميد الزمان ؛ أي سكونه ، وتوقفه في مرحلة الشباب ، والقوة ، يقول الشاعر الفرنسي للامارتين ((أيتها الأرض قفي دورانك ! وأنت أيتها الساعات قفي جريانك ! ودعينا نتمتع بعاجل لذاتنا ، وننعم بأجمل أيام شبابنا ... على إنني ياويلتاه كلما لججت في الطلب ، لج الزمان في الهرب ... فليس لسفينة الإنسان مرفأ

---

[١٩]- ديوانه ، ج ٢ ، ص ٦٤١ .
[٢٠]- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي :عزيز السيد الجاسم ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٦ م ، ص ١٤٨
[٢١]- ديوانه ، ج ٤ ، ص ١٤٧٤ .

، ولا لخضم الزمان ساحل ، إن الزمان ليتدفق ، وإنا مع تياره نمر ونمضي)) ([٢٢]) وهذه الرغبة قد لا تظهر أحياناً على سطح النصوص ، وإنما تلتمس فيما وراء الأبيات ، فإذا كان الشاعر يكثر من لوم الزمان ؛ لأنه يتجه دائماً من الإيجاب إلى السلب ، دل هذا على أنه يعترض على حركته ، ولا يرضى بها ؛ لأنه يريد منه أن يثبت عند الحد الإيجابي ولا يفارقه . ومما يؤكد هذه الرغبة الدفينة هي مشاعر السخط ، وعدم الرضا ، التي نشعر بها حين نقرأ نصوصاً تتحدث عن حركة الزمان ، والشيب .

وفي أحيان أخرى تظهر هذه الرغبة لدى الشعراء في تجميد الزمان على سطح النصوص ، فابن الرومي أيضاً تدفعه المعاناة المريرة مع اغتراب المشيب إلى تمني العيش في بحبوحة الشباب الدائم في زمان أبدي سرمدي لا ينقضي ؛ لأن الزمان الذي تخوننا أوقاته لاخير فيه ، والحياة المنغصة بالهرم ، وفقدان اللذات هي حياة بائسة كئيبة لا فرح فيها ، ولا سرور ، ويستخدم في ذلك أسلوب الاستفهام الذي يخرج إلى معنى التمني ، فيقول : ([٢٣])

أفلا سبيل إلى تَبَحْبُحِنا في سرمدٍ لا ينقضي أبَدُهْ
سَكْرى شبابٍ لا يعاقبه هرمٌ وعيشٌ دائم رغدُهْ
لا خير في عيشٍ تَخَوَّنُنا أوقاتُهُ وتَغولنا مُدَدُهْ

وفي أبيات أخرى يتمنى أن يدوم شبابه ، وأن تلون شعره صبغة السواد من جديد يقول: ([٢٤])

ليت شباب الفتى يدوم له ما عاش أو ينقضي مع الوطر
يا لمّةً قد عهدتُها زمناً سوداءَ سحماءَ جَثلة الغُدر
هل صِبغة الله فيك عائدةٌ يوماً ولو بعد طول منتظر

وفي استخدامه لأسلوب النداء في تشخيص لمة الشعر بيان لمدى لوعته ، وحسرته لفقدانه شبابه ، وتمني عودته ، وبقائه . وقد استعمل أداة النداء للبعيد في مخاطبة شعره القريب ليبين منزلته البعيدة في قلبه .

وفي أبيات أخرى يتمنى ابن الرومي أيضاً أن تنقلب أيام العمر في حياته ، فيتقدم فيه الهرم ، ويتأخر فيه الشباب . يقول :([٢٥])

والعَيْشُ طعمانِ عند ذائقهِ مُرُّ التوالي مستعذَبُ الأولِ
من عسلٍ تارةً ومن صبرٍ لهفي لتأخير عُقبةِ العسلِ

فقد جاءت المقابلة بين ((مر التوالي)) و((مستعذب الأول)) وكذلك الطباق بين ((عسل)) و ((صبر)) لبيان التناقض في حياة الإنسان في مسيرته الزمنية بين حياة الشباب الرغيدة الهانئة ،وحياة الشيب ، والشيخوخة القاسية .

المبحث الثاني : الاغتراب عن الذات والآخر

المطلب الأول : الاغتراب عن الذات :

ويقصد به أن يشعر الإنسان بانفصاله عن ذاته . وهناك معنى آخر للاغتراب عن النفس ، أو الذات هو افتقاد الفرد عمله الذي يقوم به ، وما يصاحب ذلك العمل من الشعور بالرضا والزهو ، مما يخلق لدى الفرد اغتراباً وانفصالاً عن ذاته ، وفي مجال دراستنا في الاغتراب الشيبي يعني اغتراب الإنسان في مرحلة المشيب عن نفسه ، وجسده بعد التغيرات السلبية ، التي طرأت عليه في هذه المرحلة ، ومعاناته من هذا التغير . وهذا الاغتراب ، والانفصال إنما يحدث في الأبعاد الزمانية ، وهي الحاضر ، والماضي ، والمستقبل .

---

[٢٢]- مشكلة الإنسان :زكريا إبراهيم ، ص٧٩ ، نقلاً عن كتاب من الأدب الفرنسي : ترجمة أحمد الزيات ،القاهرة ، ١٩٤٠ ،ص ٢١١ .
[٢٣] - ديوانه ، ج ٢ ، ص ٦٦٠ .
[٢٤]- ديوانه ، ج ٣ ، ص ١٠٣٣ .
[٢٥]- ديوانه ، ج ٥ ، ص ١٩٢١ .

فالحاضر يعني افتقاد الإنسان لجميع الأعمال ، التي كان الشباب يمكنه منها ، والتي حُرِمَ منها بعد مجيء الشيب ، كذلك معاناته من جميع عوامل التغير السلبي ، التي طرأت عليه بعد الشيب ، والشيخوخة ، واستغرابه لنفسه بعد هذه التغيرات ، وتعجبه منها .
وأما الماضي فإن الشيب عند المغترب يفتح المجال أمام الإحساس بالضياع ، فهو حين يمارس آلام الحاضر يتذكر الماضي ((الشباب وظله الوارف)) الميؤس من رجوعه ، فيحدث ذلك في نفسه شعوراً بالانفصال عن الحاضر ، ومقته للناس فيه ، وتأزماً نفسياً لذهاب الماضي السعيد ، وتولي أيامه النديات النظرات ، ويخلق ذلك حالة من الاغتراب القاتل .
وأما المستقبل فلأن الذات الإنسانية تعيش وسط التتابع الزمني ، والتغير ؛ لذلك لابد من أن يستهلكها سيلان الزمن المتواصل ، وتبدأ علامات الضعف والنهاية وأولها الشيب في الظهور عليها ، وتبدأ معها أيضاً معاناة القلق ، والتوتر ، والخوف من هذه النهاية .
وأهم صورتين للاغتراب عن الذات بسبب الشيب في الحاضر ، ما يمكن أن نطلق عليهما اسم ((الأزمتين)) وهما : أزمة منتصف العمر ، وأزمة آخر العمر .
أولاً : أزمة منتصف العمر : وهي أن يعيش الشاعر بعد ظهور الشيب في صراع مرير بين مرحلتي الشباب ، والكهولة ، فكل مرحلة منهما تختلف عن الأخرى في متطلباتها ، وأسلوب عيشها ، وقدراتها ، ومميزاتها وهذه الأزمة النفسية نجدها واضحة عند ابن الرومي في قوله : ([٢٦])

شَعَرٌ ميتٌ لذي وَطَرٍ حي ... ي كنارِ الحريق ذات اللهيبِ
في قناعٍ من المشيبِ لَبيسٍ ... ورداءٍ من الشباب قشيبِ
وأخو الشيب واللُّبانة في البيـ ... ـض بحالٍ كقَتْلة التغبيبِ ([٢٧])
مَعهُ صبوةُ الفتى وعليه ... صَرفة الشيخ فهْو في تعذيبِ
يُطَّبَى للصِّبا فيُدْعى مجيباً ... وهو يدعو وما لَه من مجيبِ
ليس تنقادُ غادةٌ لهواهُ ... وهو ينقادُ كانقيادِ الجَنيبِ

لقد استخدم الشاعر أسلوب المقابلة لبيان الصراع في هذه المرحلة الحرجة من حياته ، حيث تم اجتماع النقيضين الشيب ، والشباب ، فشعره المبيض بالشيب في نظره هو شعر ميت ، بل هو دلالة على موت الحياة ، بينما أوطار الشباب حية في نفسه ، ومشتعلة اشتعال الحريق ، والشيب جعل الشاعر في هيئة ، وسمت الشيخ الكبير ، بينما نفسه لا تزال فتية تعشق الصبا ، وتطلب اللهو . ومما زاد في شقائه ، واغترابه نفور الغواني منه بعد مشيبه ، وابتعادهن عنه ، فهو يطلبهن ويدعوهن ، وهن يتمادين في الهجر والنفور ، فتضاعف في نفسه الشعور بالاغتراب ، والعجز ، والذلة بسبب المنع ، والنبذ ، والقطيعة . وفي صورة تشبيهية رائعة يصور لنا حالة الصراع النفسي مع الشيب ، ونفسه الممزقة في عالم التضاد بين الشباب ، والشيخوخة بشاة افترسها الذئب ولا زال فيها رمق من الحياة .
ويقول أيضاً : ([٢٨])

أجزعني حادثُ المشيب وإن ... كنت جليداً مستحصِد المِرر
ما الشيب شيباً فإن سألت به ... فالشيب شَوْبُ الحياةِ بالكدر
هلّا يسليك عن شبيبتك ال ... شيب ومَنْعاه باقي العُمُر
أولُ بدءِ المشيب واحدةٌ ... تُشعِل ما جاورتْ من الشعر
بينا تُرى وحدها إذ اشتعلت ... أرتك نار المشيب في أُخر
مثل الحريق العظيم تبدؤهُ ... أولَ صولٍ صغيرةُ الشرر
تُعدي إذا ما بدت صواحبَها ... كأنها عُرة من العُرر

[٢٦]- ج ١ ، ص ١٤٠ .
[٢٧]- التغبيب : غَبَّبَالذئبُعلىالغنمإذاشَدَّعليهافَفَرَسَ. وغَبَّبَالفَرَسُ: دَقَّالعُنُقَ؛والتَّغْبِيبُأَن يَدَعَهاوبهاشيءٌمنالحياة ، لسان العرب مادة غبب .
[٢٨]- ديوانه ، ج ٣ ، ص ١٠٣٣ .

ليت شباب الفتى يدوم لـه ما عاش أو ينقضي مع الوطر
لكنـه ينقضي وإرْبـتـهُ في القلب مثل الكتاب في الحجر

لقد تكدرت حياة ابن الرومي وساءت أحواله بمجيء الشيب ، الذي يعني القيد ، والمنع ، والذي زاد من غربته عن نفسه ، وشبابه ، ويتساءل في حيرة المهموم ، كيف يحل هذا الشيب محل الشباب ، وحيويته ، وعطائه ؟ ويصور لنا سرعة انتشار الشيب بسرعة انتشار النار في الهشيم ، أو بسرعة تفشي العدوى ، وهذه الصورة التشبيهية الرائعة توضح لنا أن الشاعر نتيجة هذه السرعة لم يتح له الوقت الكافي للتأقلم مع الشيب ، ومما زاد في ألمه ، ومأساته أن مآرب ذلك الشباب ، المولي ، وأوطاره مازلت راسخة في فؤاده لم تتزحزح ، كأنها منقوشة على حجر ، وهذا يوقعه في أزمة منتصف العمر ؛ أي الصراع بين حاجات الشباب ، وواقع الشيب .

وابن الرومي يرى أيضاً أن الحياة في زمن المشيب ، كالحياة في الأسر يقول :([٢٩])

رأيت حياةَ المرءِ بعد مشيبه إذا زاول الدنيا حياةَ أسير

والشيب هذا الوافد الجديد يبعث الغربة ، والوحشة في نفسه ؛ لأن الشيب يعتبر غريباً طارئاً والشيء الغريب يبعث على الاغتراب منه يقول : ([٣٠])

والشيب مُسْتَوْحَشٌ منه لغربته والشيْءُ مستوحشٌ منه إذا اغتربا

٢) أزمة آخر العمر : وهي مشاعر الاغتراب ، والخوف ، والألم ، والحزن ، والإحباط ، التي تنتاب الإنسان في أواخر حياته ؛ أي في مرحلة الشيخوخة ((والحق إننا إذا كنا نخشى الشيخوخة ؛ فذلك لأنها قد ارتبطت في أذهاننا بمعاني التحقيق ، والانتهاء ، وفوات الأوان ، والشيخوخة ، كما يقول أندريه موروا : هي الشعور بأنه قد فات الأوان ، وأن اللعبة قد انتهت ، وأن المسرح من الأن فصاعداً قد أصبح ملكاً لجيل آخر)) ([٣١]) ولكن الخوف من الشيخوخة يتصل بمعنى أكثر أهمية وهو تحقيق الذات ((والواقع أن الخوف من الشيخوخة إنما هو في جوهره تعبير عن إحساس المرء بأنه لم يستطع أن يحيا حياة منتجة ، وبالتالي فإنه رد فعل يقوم به ضمير الفرد ضد عملية التشويه الذاتي التي مارسها في نفسه)) ([٣٢]) ولهذا فإن حياة الوجود البشري في جانب من جوانبها رفض لهذا الضعف ، وسعي دائب من أجل العمل على سلبه ، وإنكاره ، أو تجاوزه ، فإذا ما أصبح الإنسان عاجزاً عن ذلك ، فإن الإحباط يكون حليفه ((وإذا كان الوجوديون يصفون الإمكانات الإنسانية بوجه عام بأنها غير ممكنة ، فإن هذه الصفة تتأكد بوجه خاص في مرحلة الشيخوخة ، حيث يجد الإنسان نفسه عاجزاً عن تحقيق أية إمكانات ، ولهذا يصبح الوجود الإنساني في هذه المرحلة متسماً بالجمود ، والثبات ، تحيط به برودة ، وكآبة ؛ لأنه يقترن بالخوف من الموت ، والفناء ، والعجز عن تحقيق الذات))([٣٣]) وفي هذه المرحلة يشعر الإنسان باليأس من الحياة ، والتحسر على فقد كثير من ملذات الشباب والصبا ، وتبدو هذه الأزمة واضحة في شعر ابن الرومي ، حيث تقدم بهم العمر حتى وصل إلى مرحلة الشيخوخة ، فعبر عن مشاعره ، وما عاناه في هذه المرحلة. فأزمة آخر العمر مع الشيب حولت حياة ابن الرومي إلى جحيم من المعاناة النفسية والجسدية ففؤاده يكاد يذوب حسرة ، وأسفاً على تولي أيام الشباب ، ففقدان الشباب عنده أشد مرارة من طعم الموت ، وهو يتجرع هذا المرار طوال فترة المشيب ، ولا ينتهي هذا العذاب إلا بالموت ، ومما يزيد جمرة الحزن عنده توقداً ، والحسرة تجدداً تيقنه بأن الشباب زائل لا يعود بينما المشيب باق معه حتى مماته ، وهذا الاغتراب النفسي عن ذاته ، يزيده أيضاً قسوة ، وألماً اغترابه جسدياً عنها ، حيث تبدلت قوة الشباب ، وصحته ، ضعفاً ، ومرضاً ، فتقوس ظهره ودب الوهن في عظامه ، وأصبحت العصا رفيقته بدل الغواني ، فقد

---

[٢٩]- ديوانه ، ج ٣ ، ص ٩٩٧ .
[٣٠]- ديوانه ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .
[٣١]- مشكلة الحياة : زكريا إبراهيم ، ص ١٨٨ .
[٣٢]- المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .
[٣٣]- الأدب الجاهلي " قضايا وفنون ونصوص" : حسني عبد الجليل يوسف ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١ م ، ص ٣٨٠ .

كانت المرأة بالنسبة إليه هي الشجرة ، التي يستظل بها في قيظ الحياة ، ويرى ابن الرومي أن حياة الإنسان في هذا الكون ما هي إلا مسلسل مستمر من معاناة الألم ، والاغتراب، ودليله في ذلك هو بكاء الطفل ساعة ولادته ، ويرى أن هذا البكاء سببه معرفة هذا الطفل المسبقة بما سيقاسي من أهوال ، ويعاني من آلام ، وأحزان في هذه الحياة الدنيا ، يقول : (٣٤)

أَبَيْنَ ضُلوعي جَمْرةٌ تتوقَّدُ ... على ما مضى أَمْ حسرَةٌ تتجدَّدُ
خليليَّ ما بعد الشَّبابِ رَزِيَّةٌ ... يُجَمُّ لها ماء الشؤون ويُعْتَدُ
وفَقْدُ الشَّبابِ الموتُ يوجد طعْمُهُ ... صُراحاً وطعمُ الموتِ بالموتِ يُفْقَدُ
كفى حَزَناً أن الشباب مُعَجَّلٌ ... قصيرُ الليالي والمَشِيبَ مخلَّدُ
أقول وقد شابتْ شَوَاتِي وَقَوَّسَتْ ... قناتي وأَضْحَت كِدْنتي تَتَخدَّدُ
ودبَّ كَلالٌ في عظامي أَدَبَّنِي ... جَنيبَ العصا أَنأَدُّ أو أَتَأَيَّدُ
وبُدِّل إعجابُ الغواني تعجُّباً ... فهنَّ رَوانٍ يَعْتَبِرْن وصُدَّدُ
لِمَا تُؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يُولَدُ
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفْسَحُ ممَّا كان فيه وأرْغَدُ
إذا أبصرَ الدنيا استَهلَّ كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يُهَدَّدُ

ففي هذه الأبيات يرى ابن الرومي أن المعاناة من الشعور بالاغتراب ، هي معاناة قديمة ، وهو يقترب في ذلك من التناول الفلسفي ، والأنثروبولوجي ، الذي يرجع اغتراب الإنسان إلى انفصاله عن الفردوس ، ونزوله منه إلى الأرض .

المبحث الثاني : الاغتراب عن الآخر : إن قضية الإنسان في مشيبه ، وشيخوخته على الرغم من أنها متصلة بالزمن ، فإنها تبرز بصورة أكيدة على صعيد البنية الاجتماعية ، فالتواصل بين الفرد ، والمجتمع كثيراً ما يتأثر في مرحلة شيخوخته ، فنرى عالماً للشيوخ ، وعالماً آخر للشباب ، فإذا كان الشيوخ يمتلكون الحكمة والتجربة وليس أمامهم غير وقت قصير يحققون فيه ما يطمحون إليه ، فإنهم لا يمتلكون القوة ـ والقدرة على الإنجاز ، ولهذا يشعرون دائماً بالإحباط الذي يترتب عن العجز عن تحقيق ما يصبون إليه (٣٥) .

ويتمحور الاغتراب عن الآخر بعد المشيب في الشعر العربي القديم في اتجاهين اثنين : أولهما : وهو الأهم ، ويتمثل في الاغتراب عن المرأة ، وفقدان التواصل معها ، ويتمثل الاتجاه الثاني في الاغتراب عن باقي أفراد المجتمع .

المطلب الأول : الاغتراب عن المرأة ((نفور النساء من الشيب)) :

شاء الله لهذا الوجود البشري أن يتكون من الرجال ، والنساء ، والمرأة عند الرجل هي نظير الحياة ، لأنها مصدر الحياة ، فهي مصدر النسل ، والتعمير ، والمرأة تمثل النصف الآخر المكمل لحياة الرجل ، وأغلب الحديث عن المرأة لا يأتي خلواً من ذكر علاقتها بالرجل ، فهما معاً مجموعان في خيال الأدباء بقرن واحد . ولا يستغرب هذا الجمع وقد جعله الله تعالى سر وجود الإنسان ، والمحدد الأكبر للدنيوي من غاياته ، والمجدد في العيش لوسائله ، وأسبابه . ولقد كان مقتل (هابيل) على يدي أخيه (قابيل) إيذاناً مبكراً بأن سيكون للمرأة هذا الإنسان الضعيف ، تأثير قوي في نفس الرجل لم يلبث أن ظهر في مسلكه ، وتوجهه ، ويدل على ذلك أن أول دم أريق كان بسبب الرغبة فيها ، وإرادة الحصول عليها . وهذا الحادث كان بمثابة تحذير للبشرية من أن هوى الرجل ، وشدة نزوعه إلى المرأة ، قادر على أن يقهر في نفسه كل العواطف الجميلة النبيلة ، حتى ما كان منها غريزياً متأصلاً ، كحب الإنسان أهله ، وتعلقه بذويه ، قال تعالى : ((فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين))(٣٦) ولم تتوقف مأساة (هابيل) ، بل ظلت تتكرر ، وأشباهها في كل عصر مصورة كيف يتدله الرجل كثيراً بالمرأة ، فلا يذعن لوازع من دين ،

٣٤- ديوانه ، ج ٢ ، ص ٥٨٤ .
٣٥- ينظر الأدب الجاهلي : حسني عبدالجليل ، ص ٣٨٣ .
٣٦- سورة المائدة ، الآية ٣٠ .

أو سلطان من العقل . ولقد ظل الرجل يهفو إلى المرأة ، ويحبها ، ولا يقدر على هجرها ، أو يصبر على مجافاتها مؤثراً الشقاء بجوارها على الراحة بعيداً عنها . وهو في هذا كله ماضٍ مع تيار الفطرة الذي جعله الله سبباً في أعمار الكون ، وإتمام دورة الحياة .
وإذا كانت نفس الرجل تتوق إلى أشياء أخرى ، تُسر بها ، وتستشعر الطمأنينة بالحصول عليها ، كالمال ، والسلطة ، وحب النسل ... ألخ ، فإن توقها إلى الإلف يفوق ذلك كله ، بل أن الرجل ليستحب كثيراً من الأمور ؛ لأنها سبيل تمهد للوصول إلى محبوبته ، ثم إنه أخيراً ليستغني بالمرأة ، التي تبادله الحب عن كل ذلك ، ويصعب عليه الاستغناء بكل ذلك عن المرأة ([٣٧]) .
وهذه القوة التي تشد الرجل إلى المرأة ، كما تشد المرأة إلى الرجل ، لم يتمكن واحد من طبعها فيما وصف وصور ، إذ هي إحساس غريب مبهم ، وعاطفة مركبة متداخلة الأحاسيس ، يمتزج فيها الخوف بالرجاء ، والأمل باليأس ، والرقة بالعنف ، إلى غير ذلك من الأضداد ، والمتناقضات ، التي تشكل في مجموعها ما ندعوه بعاطفة الحب .([٣٨])
ويعتبر الحب ضرورة نفسية للإنسان ، بل ضرورة من ضرورات الحياة للنفس البشرية . فحاجة النفس إليه لا تقل عن حاجتها إلى الغذاء ، والهواء إن لم تزد عليهما ، فبدون عاطفة الحب تتداعى أركان هذه النفس ، وتعيش في عالم بائس من الاغتراب ، وتقل قدرتها على مجابهة الحياة ، وعلى النضال من أجل البقاء ، والاستمرار يقول لامارتين : ((خلق الإنسان للحب ، فهو لا يشعر برجولته وإنسانيته ، إلا يوم يشعر حقيقة أنه يحب ، أما قبل ذلك ، فهو يبحث ، ويقلق ، ويضطرب ، ويضل في شعاع فكره . حتى إذا ما وجد الحب ، وعرفه ، وقف واستراح ، وخلى زمامه بيد القدر)) ([٣٩]).
وقد صور الشعراء إقبالهم على المرأة ، وحبهم لها وهيامهم بها ، وبكل ما يتصل بها من مغانٍ وربوع ، وذكروا لواعج أشواقهم المحرقة لها ، وسعيهم الحثيث لكسب ودها ، والفوز بالقرب منها ، وأظهروا على الدوام حاجتهم الملحة لها ، وشعورهم بعدم اكتمال التحقق في وجودهم في افتقادهم لها ، أو حرمانهم منها ؛ ومن هنا رأينا الشعر يصور إقبالهم على ذلك الحب ، وتمسكهم به وإصرارهم عليه ، مهما غاب الحبيب ، أو تزوج أو فقد ؛ لأنهم كانوا يحسون في هذا الاستمساك نوعاً من إثبات الذات ، وتحقيق الوجود ([٤٠]) . وذلك أن الحب نفسه يضفي على حياة الإنسان المحب معنى ، ويتدخل قي تشكيل إحساسه بالوجود ؛ بحيث يرى في هذا الحب مبرراً قوياً لوجوده ((لأن الحب كثيراً ما يكون هو الكفيل بملء قالب الحياة الفارغ ؛ وآية ذلك أنك حين تحب ، فأنك تشعر بأنك لم تعد زائداً عن الحاجة ... "كما يقول التعبير الفرنسي" مادمت تستمد من المحبوب مبررات وجودك ، وإن المحبين ليتطلعون إلى العالم ، فيرونه بعيون جديدة ، وينظرون إلى الطبيعة ، فيخيل إليهم أنهم يرونها للمرة الأولى ؛ وما ذلك إلا لأنهم قد أحسوا على حين فجأة بأن القالب قد امتلأ ، وأن الإطار الفارغ قد أصبح يضم صورة ، لقد كانت حياتهم خاوية فارغة جدباء ، فصارت بعد الحب عامرة حافلة فياضة)) ([٤١]) . ومتى كان للحب هذا التأثير القوي في تغيير رؤية الإنسان ، وإعادة تشكيلإحساسه ، وطباعه ، كان هذا الحب خطراً عظيماً على النفس ، إذ هو قادر في حال إخفاقه على تدمير هذه النفس ، التي أعاد من قبل بناءها ، وصياغتها على نحو جميل ، فبقدر إحساس الإنسان بما أضفاه عليه الحب من سعادة غمرت جميع جوانبه ، حتى فاضت على الوجود من حوله ، يكون إحساس هذا الإنسان بالشقاء حين تنتزع هذه السعادة منه . وإن الشعور بالخسارة بعد الربح لأكثر عمقاً في النفس من نشوتها به .
وبما أن الشعراء هم أعظم المحبين ، لأنهم أكثر الناس إحساساً بالمرأة ، وأشدهم تعلقاً بها ، فقد كانت مأساة الشاعر عظيمة لفقدان التواصل مع المرأة في مرحلة المشيب ، وصدّها عنه ، فأحس

---

[٣٧]- ينظر المرأة في وجدان الشاعر العربي : السعيد محمود عبد الله ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥ م ، ص ٧ ، ٨ .
[٣٨] - ينظر المرجع السابق ، ص ١٠ ، ١١ .
[٣٩]- الأعمال الكاملة : إبراهيم ناجي ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٨ م ، ص ١٥٦ .
[٤٠]- ينظر الحياة والموت في الشعر الأموي ، ص ٤٨١ .
[٤١]- مشكلة الحياة ، ص ٤١ .

بالاغتراب ، والوحشة ، والضياع ، مثل ذلك العش ، الذي كان آهلاً ينبض بالسعادة ، ثم نفرت عنه طيوره ، وألقت الرياح بأعواده العارية لتضيع في غمرة نهر جارف . وهو في كآبته ، وما يرين عليه من صمت كالعود مُزِّقت أوتاره ، فأصبح يعاني صمت القبور ، وجمودها ووحشتها ([٤٢]) ولذلك كثرت شكوى الشعراء من إعراض النساء عنهم بعد مشيبهم ، وكثرت همساتهم الراجية المستعطفة لهن أحياناً ، وفي أحايين أخرى كانوا يحاوروهن بلهجة أكثر حدة ، وعنفاً ، وخاصة حينما يرون أنهم ظلموا بهذا الصد ، والإعراض ، وهم في كل ذلك يرجعون سبب التغير ، والانقلاب في مواقف النساء إلى الزمان .

وابن الرومي يدفعه الشعور بالنبذ ، والإقصاء ، والاغتراب – بعد نفور الغواني منه - إلى ترك مخاطبة الغواني النافرات ، واتهام والزمان ، والليالي بأنهن كن السبب في نفور الغواني منه ، من خلال التحول الزمني المتمثل في الشيب الذي يتوجه غلى خطابه مباشرة ملقياً عليه اللوم في صدودهن ، وابتعادهن عنه ، وذلك في قوله : ([٤٣])

نفَّرتْ هِيفَكَ الليالي وغيدَكْ … بمشيب كفى النُّهى تفنيدَكْ
أيها الشيْبُ قد ذَعَرتَ ظباءً … سَمِعَتْ فيّ دُونها تهديدَك
أنت شر المجدَّدات على الحي … يِ ولا بأس باكتسابي جديدَكْ
أنت عندي العَدُوُّ أكره إقدا … مك لكن أرى ردىً تعْريدَك
فابقَ لي صاحبي على رغم أنفي … حُبِّيَ العيْشَ حاكمٌ أن أُريدَكْ
قد أبى الله أن تكون فقيدي … وأبى الله أن أكونَ فقيدَكْ

ففي هذه الأبيات السابقة ، نلاحظ ردة الفعل العنيفة الصادرة من ابن الرومي تجاه الزمن والشيب ؛ وهذا يوضح مدى فداحة الأثر النفسي الأليم ، الذي تركه نفور الغواني فيه ، فهو يعرف أن لا معنى لحياته بدونهن ؛ ولذلك يصب جام غضبه على الشيب مخبراً أياه بأنه أكبر أعدائه ، وأنه مجبر على العيش به ؛ لأنه في النهاية يريد الحياة ، ولابد أن يتقبلها بكل منغصاتها .

وتبتعد صاحبة ابن الرومي عنه ، وتنأى بجنبها بعد رؤيتها لشيبه ، وتجتهد ألا يقربها ، وتتجنبه ، كما يتجنب الجُنُبُ مس المصحف الكريم ، وهذا التشبيه يوضح أن الغانية ترى أن وصال ذي الشيب يصل عندها إلى درجة عالية الحرمة ؛ ولذلك نجده أمام هذا الشعور الرهيب بالاغتراب ، والنبذ ، والإقصاء يلجأ إلى تذكر الزمان الماضي ، زمان الشباب والوصال مع النساء ، الذي كان فيه قادراً على الفعل في محاولة منه للحصول على بعض العزاء النفسي في زمن القحط ، والجدب ، يقول :([٤٤])

إنْ يَنْأَ عن جانبي بجانبه … كما اتَّقى مسَّ مصحف جُنُبُهْ
فقد أراني وقد أراهُ وما … يدخل بيني وبينه سُخُبُهْ ([٤٥])

غير أن تذكر الماضي في أحيان أخرى يكون هو أيضاً سبباً للألم ، والتحسر على فقدان الشباب فابن الرومي يعاني من فقد الغواني ، ونفورهن ، فيعذبه المنع ، والعطش الشديد الطويل إلى ما كان يألفه من ملذات ، بالإضافة إلى هوانه على الغواني ، وذلته عندهن ، فقد أبين حتى مجرد الاستماع إلى عتابه ، كما أنه بفقده سلاح الشباب أصبح ضعيفاً في معركة الحب ، حيث صار هدفاً يُرمى من الغانيات فيصيبه رميهن في مقاتله ، بينما تطيش سهامه عنهن ، فلا مفعول لها ، ولا تأثير . إن هذا الواقع المأساوي جعله يتذكر أيام شبابه الماضيات ، التي يتحسر الآن على فقدانها ، فيقول : ([٤٦])

يذكِّرني الشبابَ صَدىً طويلٌ … إلى بَرَدِ الثنايا والرُّضابِ
وشُحَّ الغانياتِ عليهِ إلّا … عن ابن شَبيبةٍ جَوْنِ الغُرابِ

---

[٤٢]- ينظر المرأة في وجدان الشاعر العربي ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .
[٤٣]- ديوانه ، ج ٢ ، ص ٧٨١ .
[٤٤]- ديوانه ، ج١ ، ص ٣٠٢ .
[٤٥]- السُخُب : القلادة أو الخيط الذي نظم فيه الخرز ، لسان العرب ، مادة سخب .
[٤٦]- ديوانه ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

يُذكِّرني الشبابَ هوانُ عَتبـي وصدُّ الغانيات لدى عتابي
يُذكّرني الشبابَ سهامُ حَتْفٍ يُصبنَ مقاتلي دون الإهابِ
رمتْ قلبي بهنّ فأقصدتْهُ طُلوعَ النَّبْلِ من خَلَل النِّقابِ
فراحتْ وهْي في بـالٍ رَخيٍّ ورحتُ بلوعةٍ مثْل الشّهابِ
وكلُّ مبارزٍ بالشيب قِرْناً فمَسْبيٌّ لعمرُك غيرُ سابي

وقد استخدم ابن الرومي التكرار في الأبيات السابقة من خلال ترديده لعبارة ((يذكرني الشباب)) فهو متميز باستخدامه لهذا الأسلوب في الصور التي كان ينوه فيها بشأن الشباب، وبيان مكانته عند تذكره ، والبكاء عليه ، ورثائه ، ولا يعتبر هذا الاستخدام غريباً ؛ لأن أسلوب التكرار يكاد يكون السمة البارزة في شعر الرثاء ((وفي هذا المجال مجال شعر الرثاء نلحظ ظاهرة التكرار التي تتردد دائماً بين الحين ، والحين ، حتى لقد تقع في صدور الأبيات كميزة من مميزات الأسلوب الرثائي بجانب كونها ضرباً من الولولة ، والندب المثير ، ويبدو أنها من موروث طقسي قديم)) ([٤٧])

وفي موقف نفسي آخر يسيطر على ابن الرومي اليأس فيرى أن الغواني لم تظلمه بالنفور منه ومن شيبه بعد أن بلغ الخامسة والخمسين ، وأنه على ذو الشيب أن ينظر إلى نفسه في المرآة ، فإن كره شيبه ، وساءه منظره ، فالغواني أولى بذلك الفعل منه ، يقول :([٤٨])

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر وشبت فـألحاظ المهَا منك نُفَّرُ
إذا ما رأتك البيض صَدَّتْ وربما غدوتَ وطَرفُ البيض نحوك أصور
وما ظلمتْك الغانياتُ بصدّها وإن كان من أحكامها ما يُجوَّر
أعِرْ طرفك المرآة وانظر فإنْ نبا بعينـيْك عنك الشيبُ فالبِيض أعذر
إذا شَنِئَت عينُ الفتى وجهَ نفسه فعينُ سواه بالشناءة أجدر

المطلب الثاني : الاغتراب عن باقي أفراد المجتمع :

وقد ظهر هذا الجانب بصورة واضحة عند الشعراء الجاهليين ، فقد وصفوا عجزهم ، وانصراف الناس عنهم ، وملالتهم مما جعلهم يقعون فريسة للحصر النفسي ولهذا شعروا في شيخوختهم ، ومشيبهم بالاغتراب ، إذ طال بهم العمر ، وانقطعوا عن أقرانهم وأرهبتهم تلك الجفوة الحادة ، التي يقابلهم بها الآخرون لاسيما أهلهم الأدنون ، فإبداء الرأي في الأمور ، والمشاركة في حياة الجماعة يحملان دلالة الحياة نفسها ، وإذا ما شعر الإنسان أن الجماعة تنتبذه ، ولا تقيم له وزناً سئم الحياة ، وتمنى الموت ؛ لأنه لم يعد يصلح في نظرهم لتلك المهام بعد أن نضبت قواه ، وذهب عنه ألقه ، ومثال ذلك الشاعر دريد ابن الصمة ، الذي كان معقد الآمال في حروب قومه ، وموضع إكبارهم ، وتعظيمهم عندما كان فتى القبيلة المقدم يخوض حروبها ، يجلب لها الانتصارات ، ويدفع عنها الغارات ، حتى إذا كبرت سنه ، ووهن عظمه جفوه ، وألقوا به وراء ظهورهم وأقصي بيته عن البيوت ، وقيد بقيد الفرس لئلا يهيم على وجهه ، فقال يصف تلك المعاناة : ([٤٩])

في منزل نـازحٍ مِ الحيِّ مُنْتبذٍ كمربطِ العيرِ لا أُدعى إلى خبر
يُمضونَ أمرهم دوني وما فقدوا منيَ عزيمةَ أمرٍ ما خلا كِبَري
وإنني رابني قيدٌ حُبستُ بـه وقد أكونُ وما يُمشى على أثري

وترتبط مرحلة المشيب ، والشيخوخة عند الشعراء الجاهليين بالإحباط ، والذلة ؛ ولذا يتمنون الموت ؛ لأنه في نظرهم خير من هذه الحياة الذليلة ، يقول حاطب بن مالك النهشلي ([٥٠])

وماذا ترجى من حيـاةٍ ذليلةٍ تعمرها بين الغطارفةِ المردِ

---

[٤٧]- شعر الرثاء في العصر الجاهلي : مصطفى عبد الشافي الشورى ، الدار الجامعية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٢٨ .
[٤٨]- ديوانه ، ج ٣ ، ص ١٠٨٣ .
[٤٩]- ديوان دريد بن الصمة الجشمي : جمع وتحقيق وشرح : محمد خيري البقاعي ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨١ م ، ص ٦٦ .
[٥٠]- المعمرون والوصايا : أبوحاتم السجستاني : تحقيق : عبد المنعم عامر ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ٣٧

وللموت خير لأمريءٍ من حياته يدبُّ دبيباً في المحلةِ كالقردِ

أما في العصر العباسي ، فيندر فيه شكوى الشعراء من الإهمال ، والترك ، والنسيان الذي كثر في العصر الجاهلي ؛ ولعل ذلك راجع إلى التعاليم الإسلامية ، التي دعت إلى احترام كبار السن ، وتوقيرهم ، والعناية بهم ، وبذلك يكون الاغتراب عن الآخر في العصر العباسي – باستثناء الاغتراب عن المرأة - أقل حدة ، وأضعف تأثيراً مما هو عليه في العصر الجاهلي ، كما تختلف نوعية المعاناة من هذا الاغتراب ، فالشعور بالإهمال أقل حدة ، وتسطر على هذا النوع من الاغتراب روح القلق والخوف من المستقبل ، وردود أفعال الآخرين اتجاه مشيبهم فابن الرومي يشعر بشيء من الإهمال بعد مشيبه ، ورحيل الشباب ، فلا أحد ينتبه له ، أو يشير إليه ، فيقول : ([٥١])

بان الشبابُ وكان لي نِعْمَ المجاور والعشيرُ
بان الشبابُ فلا يدٌ نحوي ولا عينٌ تشيرُ

كما يشكو ابن الرومي من تنكر صديقه له ، وتغير معاملته بعد أن نال منه الكبر ، فيأسف علىذلك ويتعجب منه ، ويقول لصديقه أنه لم يصاحبه على شرط الخلود ، أو الشباب الدائم ، كما أن ما أصابه من بفعل الدهر من شيب وكبر ، لابد أن يصيبه هو أيضاً في قابل أيامه ؛ لأن الزمان لا يرحم أحد ، يقول : ([٥٢])

وخِلٍّ كخِلْم السوء أنكرتُ ودَّهُ وخُلَّته أنْ نال من وجهيَ الكُبْرُ
يظل يُراعيني بعينَيْ شَنَاءةٍ يدل على بَغْضائها النظر الشَّزرُ
رأى الدهر قد أودى بماء شبيبتي فأنكر مني الشيبَ إنكارهُ النُّكرُ
كأنا تعاقدْنا الخلالة بيننا على أنني بَسْلٌ على الدهر أو حِجْرُ
ضمنتُ له أن لا أخون فظنني ضمنتُ له أن لا يخونني الدهرُ
تجاهل أحداث الزمان وإنه ليعلم حقاً أن قصري له قصرُ

كما نستشعر خوف ابن الرومي ، وقلقه من رد فعل جليسه عند حلول الشيب بلحيته ، خاصة وأن جليسه هذا يرتاع لمجرد رؤية بياض القذى بها ، فيبادر مسرعاً إلى إماطة الأذى عنها ، وذلك في قوله : ([٥٣])

رأيتُ جليسي لا يزال يروعُهُ بياضُ القذى في لحيتي فيُميطُهُ
فكيفَ به عمَّا قليلٍ إذا رأى قذى الشيب قد عفَّى عليها سقيطُهُ

أن إدراك الشاعر في مرحلة المشيب لتغير الناس ، والخلان من حوله يشعره بالوحدة ، ويدفعه نحو بؤرة الإحساس بالغربة . إن كل هذه الآثار قد زادته اغتراباً ، فلم يعد ذكره للشباب حنيناً ، وائتناساً ، وإنما صار اقتناعاً ، وتسليماً بالأمر الواقع . كما إن إحساس المرء الذي تجاوز زمنه بفقدان التناغم مع محيطه يصبح أكثر حساسية في حالات الحزن ، أو القلق ، أو الضجر ممن هم حوله ، وخاصة عندما يفقد مذاق الحياة في وسط اجتماعي لا يتجاوب فيه أفراده مع أفعاله ، وردود أفعاله .

هكذا يتضح لنا من الأبيات السابقة اختلاف مظاهر الشكوى في الاغتراب عن الآخر بين ابن الرومي الذي يمثل العصر العباسي ، والشعراء الجاهليين ، فإذا كان الجاهليون اشتكوا من الإهمال المطلق ، فإن ابن الرومي اشتكى من ، التنكر ، وبدا أكثر حساسية من ناحية الترقب ، والخوف ، والقلق من ردة فعل الآخرين عليه بعد مشيبه .

---

[٥١]- ديوانه ، ج ٣ ، ص ٨٩٧ .
[٥٢]- ديوانه ، ج ٣ ، ص ٩٥٧ .
[٥٣]- ديوانه ، ج ٤ ، ص ١٤٣٨ .

الخاتمة :

وبعد هذه الصفحات التي عشنا فيها مع موضوع ((الاغتراب الشيبي والزمان عند ابن الرومي)) يتضح لنا ما يلي :

١) إن اغتراب المشيب ظاهرة إنسانية عامة قديمة ، ولكنها تظهر بوضوح عند الشعراء ؛ لأنهم أرق مشاعراً ، وأكثر حساسية من غيرهم .

٢) ازدادت ظاهرة اغتراب المشيب في العصر العباسي عامة ، وعند بن الرومي خاصة ؛ لأن العصر العباسي أكثر حضارة ، ومدنية من العصور السابقة ، ولذلك زاد تمسك الإنسان بالحياة المادية ، وتضخم لديه الشعور بالاغتراب ، كلما فقد أحد مقومات التمتع بهذه الحياة .

٣) ظل الدهر ، والزمان في الشعر العربي منذ الجاهلية موضع انتقاد ، ومصدر شقاء للإنسان ؛ إما بسبب ما كان يتوهمه الجاهليون من أنه الفاعل الحقيقي ، لما يصيبهم في الحياة من نوازل ، وكوارث ، وهرم ، وموت، وهو ما حرص الإسلام على تصحيحه ؛ وإما بسبب شعور الإنسان بالزمان من حيث هو وسيط لما يحصل له في حياته من تغير وصيرورة ؛ أي بسبب ارتباط وجوده بالزمان ، وفي الزمان .

٤) استمرار تحميل الزمان مسؤولية الآلام الاغترابية من المشيب في الشعر الإسلامي ، وخاصة العباسي ؛ سببه اختلاف النظرة إلى الزمان بين الشاعر الجاهلي ، والشاعر العباسي ، فبينما ينظر الجاهلي إلى الزمان بمنظار الحقيقة ، ينظر إليه العباسي بمنظار الشعرية .

٥) الإنسان كائن طموح يعيش مستقبله أكثر من ماضيه ، وحاضره ، ويسعى دائما إلى صورة من الكمال تدفعه إلى رفض ما يجري حوله كلما تعارض ذلك مع ما يطمح أن يكون عليه ، فتعارض مجريات الزمان مع صورة الكمال ، هي التي تدفع المرء إلى رفضه ، ووصفه بالطيش حيناً وبالظلم حيناً آخر ؛ لأنه لم يحقق له الظروف التي يتمناها .

٦) تمثلت المكونات الأساسية لاغتراب المشيب والزمان عند ابن الرومي في العجز ، وانعدام القدرة الذي انقسم إلى : أ) الشكوى : حيث اشتكى من الظلم المركب للزمان والغواني ومن نهار الشيب السرمدي ، وديمومته ، وعدم زواله ، ومن استراق الزمان للشباب بصورة خفية.

ب) الخضوع : ويتبلور في البكاء على الشباب والخضوع للماضي .

ج) الانفصال عن الواقع وتمني اللامعقول : وتجسد في الرغبة في تجميد الدهر عند مرحلة الشباب .

٢) الاغتراب عن الذات والآخر : أ) الاغتراب عن الذات : وتمثل في أزمتين رئيسيتين : أزمة منتصف العمر : وهي الصراع بين حاجات الشباب ، وواقع الشيب ، وأزمة آخر العمر: وهي الشعور باليأس من الحياة ، والتحسر على ذهاب مباهج الشباب ، والصبا .

ب) الاغتراب عن الآخر : وينقسم إلى قسمين : الأول : الاغتراب عن المرأة الذي تمثل في ظاهرة نفور الغواني من الشيب ، والثاني : الاغتراب عن باقي أفراد المجتمع : حيث سادت فيه عند ابن الرومي مشاعر الخوف والقلق من الأهمال ، والتنكر له في مرحلة المشيب .

قائمة المصادر والمراجع

١- اتجاهات الشعر العربي المعاصر : إحسان عباس ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٨م.
٢- الأدب الجاهلي " قضايا وفنون ونصوص" : حسني عبد الجليل يوسف ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١ م.
٣-الأسس النفسية للإبداع الفني : مصطفى سويف ، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٥٩م.
٤-الأعمال الكاملة : إبراهيم ناجي ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٨ م.
٥-الاغتراب : ريتشارد شاخت ، ترجمة : كامل يوسف حسين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ن ١٩٨٠ م.

٦- الاغتراب عند إيريك فروم : حسن محمد حماد ، الؤسسة الجامعية ، بيروت.
٧- الاغتراب في تراث صوفية الإسلام : عبد القادر موسى المحمدي ، بيت الحكمة ، بغداد العراق ، ٢٠٠١ م.
٨- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي :عزيز السيد الجاسم ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٦ م .

٩-الإنسان والاغتراب : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .
١٠- بنية اللغة الشعرية : جان كوهن :ترجمة محمد الولي ، ومحمد العمري ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٦م.
١١- التطور الخالق:هنري برجسون ، ترجمة : محمد محمود قاسم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ، ١٩٨٤ م.
١٢- الحياة والموت في الشعر الأموي : محمد حسن الزير ، دار أمية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٨٩ م .

١٢) ديوان ابن الرومي:تحقيق : حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٩ م .
١٣)ديوان دريد بن الصمة الجشمي : جمع وتحقيق وشرح : محمد خيري البقاعي ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨١ م.
١٤) الزمن في الشعر الجاهلي: عبد العزيز محمد شحادة ، دار الكندي للنشر و التوزيع، إربد ،الأردن ١٩٩٥ م.
١٥)شعر الرثاء في العصر الجاهلي : مصطفى عبد الشافي الشورى ، الدار الجامعية للكتاب ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ م .

١٦) ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات : د. مي يوسف خليف ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة.
١٧) مجموعة المعجم الوسيط ، دار الأمواج ، بيروت ،١٩٨٧ م.

١٨) المرأة في وجدان الشاعر العربي : السعيد محمود عبد الله ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥ م.
١٩) مشكلة الإنسان : زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر الفجالة ، دار مصر للطباعة ، د.ت
٢٠) مشكلة الحياة : زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر الفجالة ، دار مصر للطباعة ،١٩٧١م

٢١)المعمرون والوصايا : أبوحاتم السجستاني : تحقيق : عبد المنعم عامر ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ م .